2- جذور الشعرية:

إن الحديث عن مفهوم الشعرية المتداول اليوم يطرح بدوره إشكالية تحديد منبعه الأول و كذا مدى ارتباط هذا المفهوم بمختلف النظريات النقدية القديمة. وهو ما يوضح أهمية البحث في جذور الشعرية. في حين أننا في هذا الجزء من الدراسة لا ندعي أننا سنقوم باستقراء تاريخي لمصطلح الشعرية. بل سنقف عند المحطات الرئيسية التي تم فيها تداول مصطلح الشعرية أو حتى نتناول مفهوم الشعرية بمصطلحات أخرى و بالتالي نتمكن من تحديد الخطوط العريضة لجذور الشعرية. ولا بأس أن نبدأ ببحث جذور الشعرية في التراث الغربي و السبب في ذلك هو أن مفهوم الشعرية كما نتداوله اليوم في حقل الدراسات النقدية العربية وافد إلينا مع الثقافة الغربية هذا بالإضافة إلى أن جذور مفهوم الشعرية موجودة في كتاب فن الشعر **لأرسطوطاليس**.

أ- جذور الشعرية في التراث الغربي:

كما سبقت الإشارة إليها, لعل أفضل كتاب يمكننا العودة إليه لبحث جذور الشعرية في التراث الغربي هو كتاب **"فن الشعر "**لأرسطو". والذي يعد منبع التأصيل لمفهوم الشعرية على نحو ما فهمه أرسطو في عصره, ثم اتبعه بعد ذلك عدد غير قليل من الفلاسفة و النقاد, بل حتى من عارضه من الفلاسفة في بعض القضايا المرتبطة بالشعرية لم يعارضه بصفة كلية و إنما جاءت معارضته جزئية حتى صار كتاب *فن الشعر* لأرسطو يؤصل لمنهج يسير عليه النقاد في معالجة الأدب و قضاياه.

لقد قدم أرسطو في كتابه **"فن الشعر"** أصولا و نظريات للشعرية تستجيب لخصوصية الفنون التي كانت في عصره و قبل عصره فابتدأ بتقسيم الفنون بحسب أداة المحاكاة فيها أو الموضوعات، أو حتى بحسب تباين الأساليب المستخدمة في المحاكاة. فيقول أرسطو: "الملحمة و المأساة، بل الملهاة والديثرمبوس [8].

و جل صناعة العزف بالناي و القتارة، هي كلها أنواع من المحاكاة في مجموعها، لكنها فيما بينها تختلف على أنحاء ثلاثة: لأنها تحاكي إما بوسائل مختلفة أو موضوعات متباينة، أو بأسلوب متمايز. فكما أن بعضها - بفضل الصناعة أو بفضل العادة - يحاكي بالألوان و الرسوم كثيرا من الأشياء التي تصورها وبعضها الآخر يحاكي بالصوت"[9].

يوضح أرسطو من خلال القول السابق مسألة التفريق بين الفنون التي ظهرت في عصره، معتبرا أنها مجتمعة تشكل ضربا من المحاكاة، إلا أنها تختلف عن بعضها البعض، فهي ثلاثة أصناف: صنف يعتمد على وسائل مختلفة في المحاكاة، و صنف آخر يعتمد على موضوعات متباينة في المحاكاة، أما الصنف الثالث فيعتمد على تنوع الأساليب في المحاكاة، و بهذا يحدد أرسطو مفهوم الفن باعتباره ضربا من المحاكاة، بما فيها فن الأدب لكنه يشير بعد ذلك إلى أن فن الأدب كما نتداوله اليوم بهذا المصطلح لم يكن محددا في عصره حيث يقول: * أما الفن الذي يحاكي بواسطة اللغة وحدها، نثرا أو شعرا- و الشعر إما مركبا من أنواع أو نوعا واحدا -فليس له أسم حتى يومنا هذا*[10].

يبين قول أرسطو السابق أن الفن الذي يكون محاكاة بواسطة اللغة ينقسم إلى شعر و نثر، وهو ما نصطلح عليه اليوم بمصطلح الأدب حيث يشير إلى هذا ديفيد ديتس حين قال:"...ويتبين أنه لم يكن في زمنه اصطلاح جامع تنطوي تحته جميع الأنواع التي تتخذ اللغة أداء للمحاكاة ,سواء في النثر أو في النظم، والاستعمال الحديث لهذا الاصطلاح هو كلمة *أدب*[11]

إن حديث أرسطو عن الشعر و النثر - برغم عدم وجود مصطلح يدل عليها في عصره-يحاول من خلاله توضيح قوانين الفن الذي يعتمد على اللغة رغم أن أرسطو لم يهتم كثيرا بكيفية إنتاج أواع الأدب إلا أنه حاول البحث في ماهيتها برغم اختلافها عن بعضها البعض في بعض الخصائص و اجتماعها تحت مظلة واحدة وهي أداة المحاكاة و نقصد بذلك اللغة، وفي هذا يقول ديفد ديتس:*كان أرسطو طاليس مهتما بماهية المسرحيات التراجيدية أكثر من اهتمامه بكيفية إنتاج الكتاب المسرحيين للمآسي .أما أفلاطون في حوار*إيون* فانه يتحدث عن الناحية النفسية في الخلق الفني، و كذلك كان النقاد الرومنطيقيون يخصون باهتمامهم هذه الناحية من النقد*[12].

إذن مما سبق ذكره يتضح لنا جليا أن اهتمامات أرسطو كانت موجهة نحو الفن و ماهيته و في مقدمة ذلك الشعر و النثر أو ما نصطلح عليه باسم الأدب، ثم إن دراساته كانت تنصب حول ماهية الأدب أكثر من كيفية إنتاجه وهذا عكس بعض الفلاسفة أمثال أفلاطون و إيون اللذين كانا يهتمان بتأثير

نفسية الأديب على الإبداع الفني و هو ما يشكل الاتجاه النفسي في النقد الأدبي في العصور المتأخرة.و بالتالي فهذا يؤكد أن أرسطو قد شق طريقه نحو استقراء القوانين التي تشكل ماهية الأدب أي مجموع الأنظمة التي تجعل من أدبا وليس شيئا آخر. و هو بالضبط مفهوم الشعرية كما نتداوله اليوم.

وبالتالي يمكن لنا القول بأن أرسطو كان سباقا في البحث عن الشعرية من خلال الفنون التي كانت في عصره، ولعل ذلك ما يظهر من خلال المقارنات التي يقوم بها أرسطو بين الشعر وبقية أصول المعرفة الأخرى كتفريقه بين الشعر و التاريخ من خلال دفاعه عن الشعر. حيث استهل الفصل الذي تحدث فيه عن الثنائية الواقعي و المحتمل بالتمييز بين التاريخ و الملحمة حق صار ذلك الفصل من كتاب *فن الشعر* لأرسطو بعد ذلك "ذو أهمية و شهرة في تاريخ علم الجمال فالبحث في فكرة وحدة الفعل أدى بأرسطو إلى الفصل بين الشعر بوصفه تمثيل المثل الأعلى، وبين التاريخ، بوصفه تصوير الأحداث الواقعة"[13].

الواضح أن دراسات أرسطو لقيت إقبالا من قبل النقاد و الفلاسفة بحيث توالت الشروح والتعليقات على كتابة * فن الشعر* من أجل إبراز مختلف القوانين الشعرية التي تحكم الأدب بحسب فنون ذلك العصر" فقد وصديقه بروتولو ميلومبادى شرحا مشتركا لكتاب*فن الشعر* *Incerto Maggi* قدم كل من فنشنتسو مدجي لأرسطو أبرزا في مقدمته الروح العامة لمنهجهما في الشعر.

ففي المقدمة التي كتبها بروتولوميولومباردي يقول:" إن الشعر هو الروح كلها في مجموعها، و هو لا يطلب من الشاعر تحديد نوع معين من الحياة الروحية، بل التعبير عن جميع معاني الحياة الروحية والملكة الشعرية طراز و حدها، أعني أن لها قوانينها الخاصة و أنها تحيل إلى طبيعتها جميع العناصر التي تتلقاها, و تكيفها لتوافق أعراضها ووسائل التعبير عندها . ومن هنا كان الجانب الإلهي. و يقوم فن الشعر على أمرين: دراسة المحاكاة ثم الانسجام و الإيقاع"[14].

فمن خلال الشرح السابق يتضح جليا تحديد مفهوم فن الشعر على نحو ما قدمه أرسطو و فهمه بعد ذلك كل من فنشنتسو و برتولوميو و هو أن فن الشعر يقوم على دراسة المحاكاة و دراسة الانسجام والإيقاع أي مجموع القوانين التي تهيمن على التأليف الشعري و هو المفهوم الذي يمكن مقابلته بمفهوم الشعرية المتداول اليوم ,وبالتالي يمكننا القول بأن جذور الشعرية تنطلق من خلال ما قدمه أرسطوطاليس في كتابه "فن الشعر" و هذا رغم الانتقادات التي وجهت لذلك الكتاب و في مقدمتها الآراء ترى بأن كتاب" فن الشعر" كتاب ناقص. *... فأما كاستلفترو فيري أن كتاب أرسطو" فن الشعر" كتاب ناقص، وما بقي لنا

منه ليس إلا سلسلة من المذكرات التي من المباح تنميتها و إكمالها. ومن هنا لم يقتصر على التفسير الحرفي لنص أرسطو. بل توسع في بيان الأعراض التي عرض لها في هذا الكتاب, وتعمق معانيه الرئيسية*[15].

إذن يمكن القول بان كتاب "فن الشعر" لأرسطو يعد بذرة الشعرية التي من خلالها توضح أصول البحث في ماهيتها ونظرياتها و هذا بالأخذ في الاعتبار مسألة تنوع الأجناس الأدبية و كذا التطورات التي لحقت كل جنس منذ نشأته الأولى. و حتى و إن اختلفت الشروح التي قدمت الكتاب "فن الشعر "لأرسطو إلا أن جل الدراسات النقدية التي ظهرت في القرن الذهبي للأدب الذهبي للآداب الأوربية تحاول في مجملها الإفادة مما قدمه أرسطوطاليس "فلقد كان لهذا الكتاب من المكانة في تاريخ النقد الأدبي في أوروبا الحديثة ما لم يظفر به أي كتاب آخر حتى الآن"[16].

ولم يتوقف تأثير كتاب" فن الشعر" لأرسطو عند حدود الرقعة الجغرافية بل امتد تأثيره إلى البلاد العربية حيث ظهرت ترجمات عربية قديمة. و شروحا قدمها فلاسفة عرب و منها شروح الفرابي و ابن سينا وابن رشد. والتي أصبحت بدورها بعد ذلك مرجع النقاد الغربيين. بل إن بعض الشروح التي قدمها بعض الفلاسفة العرب لكتاب "فن الشعر" لأرسطو لا تخلو من اجتهاداتهم الفردية و محاولتهم النظرية لقوانين الخطاب الأدبي على نحو ما فهموه في عصرهم. ولعل هذا الكلام هو ما يدفعنا إلى محاولة بحث الشعرية بمفهومها المتداول اليوم في التراث النقدي العربي. و ذلك دون أن نلتف حول أي رأي مسبق فيما يتعلق بمسألة أسبقية أو تأخر العرب القدامى في تناول قوانين الخطاب الأدبي مقارنة بجهود النقاد والفلاسفة الغربيين.

ب -جذور الشعرية عند العرب القدامى:

لعل ما يجب توضيحه بداية هو أن الشعرية كمصطلح قائم بذاته موجود في كتاب العرب القدامى. في حين أن دلالة ذلك المصطلح في تلك الكتابات مختلفة ,ففي كلام ابن سينا الذي يقول فيه:*إن السبب المولد للشعر في قوة الإنسان ,شيئان أحدهما الالتذاذ بالمحاكاة و السبب الثاني حب الناس للتأليف المتفق و الألحان طبعا. ثم قد وجدت الأوزان مناسبة للألحان. فمالت إليها الأنفس وأوجدتها. فمن هاتين العلتين تولدت الشعرية*[17]. في هذا الكلام يتضح مدلول الشعرية عند ابن سينا و الذي يقصد به أنها تعني القوة المولدة للمحاكاة والألحان. وهذا المقصود يرتبط أساسا بفن الشعر أكثر من ارتباطه بالفنون النثرية الأخرى.

ولا يخفى علينا أن ابن سينا قد تناول كتاب*فن الشعر*لأرسطو من خلال كتابه *الشفاء*. وهو ما يجعلنا أمام افتراض أن فهم ابن سينا لكتاب *فن الشعر*لأرسطو هو المسؤول عن ربط ابن سينا مصطلح الشعرية بفن الشعرية بفن الشعر .ويتضح ذلك خصوصا من خلال مجموع الفصول التي ضمها كتاب*الشفاء*و خاصة منها الفصل الذي كان عنوانه: "في مناسبة مقادير الأبيات مع الأغراض". إلى جانب الفصل الذي تناول فيه ابن سينا*حسن ترتيب الشعر* و فصل في قسمة الألفاظ و موافقتها لأنواع الشعر. و هذه الفصول في مجموعها مع الفصول الأخرى من الكتاب لا تخرج عن نطاق ربط الشعرية بفن الشعر. إذن الدلالة الأولى التي يمكن لنا أن نحددها من خلال كتاب الشفاء لابن سينا لمصطلح الشعرية هي أنها تعني قوانين نظم الشعر.

1- الكلية المشتركة لجميع الأمم. أو للأكثر. إذ كثير مما فيه هي قوانين خاصة بأشعارهم و عاداتهم فيها. إما أن تكون نسبا موجودة في كلام العرب أو موجودة في غيره من الألسنة"[18].

إذن الواضح أن المفهوم الذي استوعبه ابن رشد من خلال كتاب " فن الشعر" لأرسطو هو أن ذلك الكتاب محاولة نحو استقراء قوانين الشعر عند مختلف الأمم. و هو ما يؤكد قولنا السابق فما يتعلق بمفهوم الشعرية عند ابن رشد و الذي يربطه أساسا بفن الشعر. ثم إلى جانب ذلك فإن قوانين الشعرية موحدة عند الأمم وهو نفس الرأي الذي نادى به قدامة بن جعفر إذ يقول :"إن الغلوّ عندي أجود المذهبين و هو ما ذهب إليه الفهم بالشعر و الشعراء قديما. و قد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن أكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم"[19].

إذن يوافق قدامة ابن جعفر ابن سينا في الرأي الذي يرى أن قوانين الشعر موجودة عند كل أمة من الأمم. في حين أننا نرى أن ما حاول أرسطو و ضعه هو قوانين الشعر في الآداب اليونانية. و هو يقابل جهودا أخرى بذلها النقاد العرب القدامى لتحديد قوانين الشعر العربي و لكنها لم تكن محددة في بدايتها الأولى.

فالنقد الذي كان يصدره النابغة الذبياني في العصر الجاهلي عندما كان يحتكم إليه للموازنة بين الأشعار كان مؤسسا على ذوق عربي سليم للشعر لكنه لم يكن موضحا في قوانين تنظيرية صريحة إلا ما جاء تعليلا لأحكامه التي يرفضها الشعراء. و في ذلك ما يتضح من خلاله حكم النابغة بين شعر حسان بن ثابت و الخنساء حين فضل النابغة شعر الخنساء. فغضب حسان فما كان من أمر النابغة سوى تقديم

سند عدم استحسانه شعر حسان إذ قال النابغة أن حسان لو قال البيض في موضع قوله الغرّ من بيته الذي يقول فيه:

"**لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما**". ولو قال: و أسيافنا يجرين بل قوله: و أسيافنا يقطرن لكان أفضل: كل هذا من باب رأي النابغة في بيت حسان بالتعليل و بالاحتكام إلى الغلوّ و الإفراط باعتباره مقياس جودة الشعر عند النابغة . و سواء كان النابغة محقا في حكمه أو مخطئا على نحو ما ذهب إليه قدامة بن جعفر[20]. فإن ذلك يبقى نموذجا يمكن لنا من خلاله أن نقول :أن العرب كان لها من الجهود ما يوضح سعيهم نحو محاولة نقد الشعر وحتى النثر على ضوء تنظيرات ضمنية موجودة في عقولهم . كما أن العرب لم تسم تلك الموزنات -و الأحكام الصادرة في حق الشعر. "فاغلب الظن أن العرب لم يعرفوا هذا المصطلح الذي يجري على ألسنتنا اليوم. و هو عبارة(النقد الأدبي). و أرجح أن لغتنا العربية لم تعرفه إلا في العصر الحديث فحسب. إذ لم أعثر عليه فيما قرأته من كتب الأدب, و لا قواميس اللغة"[21].إن ما ذهب إليه أحمد بدوي في القول السابق يوضح أن مصطلح النقد الأدبي على اغلب الظن لم يكن متداولا عند العرب قديما. ولكن استخدام مصطلح "الشعرية" هو الشائع على نحو الترجمات التي ظهرت على يد الفلاسفة العرب لكتاب "فن الشعر" لأرسطو. و في هذا يقول أحمد بدوي:"و الحق أن الحياة الأدبية لغير العرب لم تكن واضحة المعالم عند نقاد العرب. حتى بعد أن ترجمت كتب أرسطو في الخطابة و الشعر. لأن الأجناس الأدبية التي تحدث عنها أرسطو لم تكن واضحة. و لا مترجما نماذج منها إلى الأدب العربي. فلم تتضح لهم صورة الحياة الأدبية عند غير اليونان"[22].

إذن غموض الحياة الأدبية لغير العرب عند النقاد العرب هي التي كانت وراء القصور في فهم كتاب*فن الشعر* لأرسطو, و لعل ذلك هو السبب الحقيقي وراء تقديم هذا الكتاب من قبل الفلاسفة العرب أمثال "ابن رشد" و" ابن سينا" على أنه استخلاص لقوانين الشعر. رغم وجود جهود حثيثة عن النقاد العرب تسعى نحو استخلاص القوانين التي تضبط الشعر و النثر معا مثل جهود " ابن المعتز" في استخلاص خمسة مبادئ تنطبق على الشعر و النثر معا حسب ما ذهب إليه "محمد مندور"حين قال:*ولكن كتاب البديع لابن المعتز لم يمس النقد إلا بطريق عارض. لأن المبادئ الخمسة التي عددها تنطبق على النثر إن لم تكن أكثر صلاحية له مع الاعتراف له بفضل السبق في تحديد أصول هذا الفن*[23].

وبالتالي فإن الجهود المبذولة من قبل النقاد العرب نحو محاولة استخلاص قوانين عامة تضبط الشع و النثر معا كانت موجودة و لعل بعضها أدرج في علم البلاغة لكنها لم تكن مقصودة بمصطلح الشعرية, لأن هذا المصطلح عند العرب القدامى كان يشير إلى قوانين الشعر, أو بمعنى أصح كان ذلك عند أغلب النقاد العرب. فالواضح إذن أن البحث في الشعرية عند العرب القدامى كان موجودا ولكن دون استخدام مصطلح الشعرية. لكن دلالته التي تحمل مفهوم البحث عن قوانين الخطاب لم تكن كذلك بل إن وجدت فقد تقتصره على الخطاب الشعري.

و مع ذلك فيرى بعض الدراسيين أمثال" حسن ناظم" أن مصطلح *الشعرية* بالمفهوم المتداول و الذي يعني البحث في قوانين الخطاب الأدبي كان موجودا عند "حازم القرطاجني" و ذلك من خلال قوله:

* وكذلك ظن هذا أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ كيف اتفق نظمه و تضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق لا يعتبر عنده في ذلك قانون و لا رسم موضوع*[24].

يعلق حسن ناظم على القول السابق لحازم القرطاجني حيث يرى بأن ذلك القول يستعمل لفظ الشعرية بمفهوم يقترب كثيرا من معناها العام، أي قوانين الأدب و منه الشعر. و يظهر هذا الرأى من خلال قول "حسن ناظم": *بيد أن نص حازم القرطاجنى يشير إلى معنى للفظة (الشعرية) يقترب- إلى حد ما- من معناها العام أي قوانين الأدب و منه الشعر*[25].

يظهر قول حسن ناظم أن القرطاجني من الذين استخدموا لفظ الشعرية بمعنى قريب من المعنى المتداول اليوم، وهو ما يظهر من خلال إطلاعنا على نظرية النظم عند" عبد القاهر الجرجاني" إذ هو الآخر قد أحسن التنظير لقوانين النص الأدبي دون الاقتصاد على وجودها في فن الشعر لوحده، بل باعتبارها قوانين مشتركة في سائر أجناس الأدب، أي ما يقابل مصطلح الشعرية غير أن عبد "القاهر الجرجاني" استخدم مصطلح النظم فكان النظم نظرية تبين حقيقة الظاهرة الإبداعية و في هذا يقول حسن ناظم:

لقد كان النظم نظرية ناضجة التفسير الظاهرة الإبداعية عموما و إعجاز القرآن خصوصا[26].

و خلاصة القول هو أن الشعرية كمصطلح قائم بذاته موجود في بعض كتابات النقاد و الفلاسفة العرب القدامى في حين أن دلالته كانت مربوطة أساسا بجنس الشعر و في رأينا فإن مرد ذلك راجع إلى الاهتمام الكبير الذي أبدته العرب بجنس الشعر و كذا التفاهم العميق حول هذا الفن الذي كان لا يكاد يتجزأ من حياتهم العامة و الشخصية و الاجتماعية و السياسية ... أما فيما يتعلق بمفهوم الشعرية الذي يعني قوانين النص قوانين النص الأدبي فهو موجود هو الآخر عند العرب القدامى لكن بمصطلحات أخرى

كمثل النظم، إذ الجهود المبذولة من النقاد العرب القدامى نحو محاولة استخلاص قوانين عامة تحكم الظاهرة الأدبية كانت موجودة إلا أنها اقتصرت عند بعضهم على البحث عن القوانين التي تضبط جنس الشعر،و ذلك انطلاقا من فن الموازنات التي انطلقت منذ الجاهلية و التي من روادها "النابغة الذبياني" إلى" جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي" في استخلاص البحور الشعرية و تستمر مع" قدامة بن جعفر" في محاولة تلخيصه جيد الشعر من رديئه... وهكذا إلى جهود" عبد القاهر الجرجاني" من خلال كتابه المشهور* دلائل الإعجاز* و الذي حاول فيه وضع نظرية النظم،وهذا كله يضاف إلى بعض الإشارات التي تناولها عدد من شراح كتاب *فن الشعر* لأرسطو و التي ربطت المفهوم بالمصطلح، و يظهر ذلك خاصة مع" حازم القرطاجني".

و من هنا فإنه لمن الموضوعي أن لا نقلل من شأن الدراسات العربية القديمة و كذا جهود النقاد العرب القدامى في محاولتهم التنظيرية على الأقل على مستوى دراساتهم التي تتخذ النص الأدبي العربي مدونة للفحص قصد استقراء جمالياته و فنيته من أجل توجيه الأدباء.